سلسلة حياة الرسول وأهل بيته (ع)

ShiaKids.Net

الإمام جعفر الصادق (ع)



دار المحجة البيضاء

عندما رَغِبَ الإمامُ زينُ العابدين(ع) بتزويجِ ابنهُ محمدٌ، تلفَّتَ حواليه عن امرأةٍ تليقُ به. كانت المدينةُ عامرةٌ بالبيوتِ العريقة، والعظيمةِ الشأن. استعرضَها واحدةً إثرَ أخرى. واستقرَّ رأيهُ على بيتٍ تصلحُ أن تكونَ نبتته الطيّبةُ عروساً لابنه. وكانت هذه النبتةُ الطيبةُ، فاطمةُ بنتُ القاسم.

وهي امرأةٌ جليلةُ القدرِ، من أسرةٍ شريفةٍ وكريمةٍ، أباها كان أحدُ ثقاتِ الإمام زين العابدين(ع)، وأحدُ علماءِ المدينة السبعة وجدُّها لأبيها محمدٌ، كانَ من أعظمِ اتباعِ الإمام عليٍّ بن أبي طالب(ع)، وأشدَّهم حباً وإخلاصاً لَهُ. وقد استشهدَ في سبيلِ الإمام(ع) ونهجه. فتشرّبَتْ حُبَّ آلِ البيتِ منذُ صغرِها. بعدَ زواجِها انتقلَتْ للعيشِ مع زوجِها في بيتِ الإمام زين العابدين(ع). وفي ذلكَ البيتِ أنجبَتْ طفلَهَا جعفرٌ في ١٧ ربيع الأول عام ٨٣هـ. وهو نفْسُ اليومِ المباركِ الذي وُلِدَ فيه الرسول(ص).

كانَتْ تشعرُ بأنّها أسعدُ النّساءِ. فزوجُها الشابُ الإمام محمدٌ الباقر(ع) هو قُرّةُ عينِ المدينة. ومثارُ الإعجابِ والتوقيرِ لمَا اشتهرَ به منْ علمٍ غزيرٍ. وجدُّ ابنِها الإمامُ زين العابدين(ع) أعظمُ النّاسِ شأناً. وهو سيّدُ المدينةِ الفعْليّ. وليسَ الحاكمُ الأمويُّ الكريه.

كانتْ امرأةٌ، فاضلةٌ، تقيةٌ، محسنةٌ، اشتهر عنها حبُها للخيرِ والإحسان، وعُرِفتْ بالمدينة ـ بالمُكرَّمة ـ لمَا حازَتْ عليه من الفضائل.

وذاتَ مرّةٍ كانت تطوفُ بالكعبة، فلَمّا اقتربَتْ من الحجرِ الأسود، وضعَتْ عليه يدها اليُسرى. فصاحَ رجلٌ يجهلُ منزلَتها كانَ بالقرب منها:

ـ لقد أخطأْتِ السنةَ، يا امرأة.

أجابته بهدوءٍ:

ـ «واللهِ، إنّا أغنياءُ عن علمِكَ».

فلمّا عرفَ الرجلُ من تكونُ، خجلَ وانصرفَ في حالِ سبيله.

قُدّرَ لجعفرٍ (ع) أن يقضي أربعةَ عشرَ سنةٍ مع جدهِ الإمامِ زينِ العابدين (ع) كان يوليه العنايةَ اللازمةَ لتنشئته وإعدادهِ للمهمةِ الساميةِ التي أختارَهم اللهُ لها، مهمةِ مواصلةِ رسالةِ جدّهِ المصطفى محمدٍ (ص) ومحاربةِ الطغاة.

فأخذَ الإمام جعفرٌ (ع) منهُ الكثيرَ، من مكارمِ الأخلاقِ، ومحاسنِ الأعمالَ، وشدّةَ التقوى والعلم الرباني العظيم.

وفي هذا البيتِ الجليلِ، المغمورِ بالنورِ، والعامرِ بالإيمان، والناطقِ بالعلمِ، نَشأَ جعفرُ بنُ محمدٍ (ع). فورثَ منهُ مَجْدَ نسبهُ الشريف.

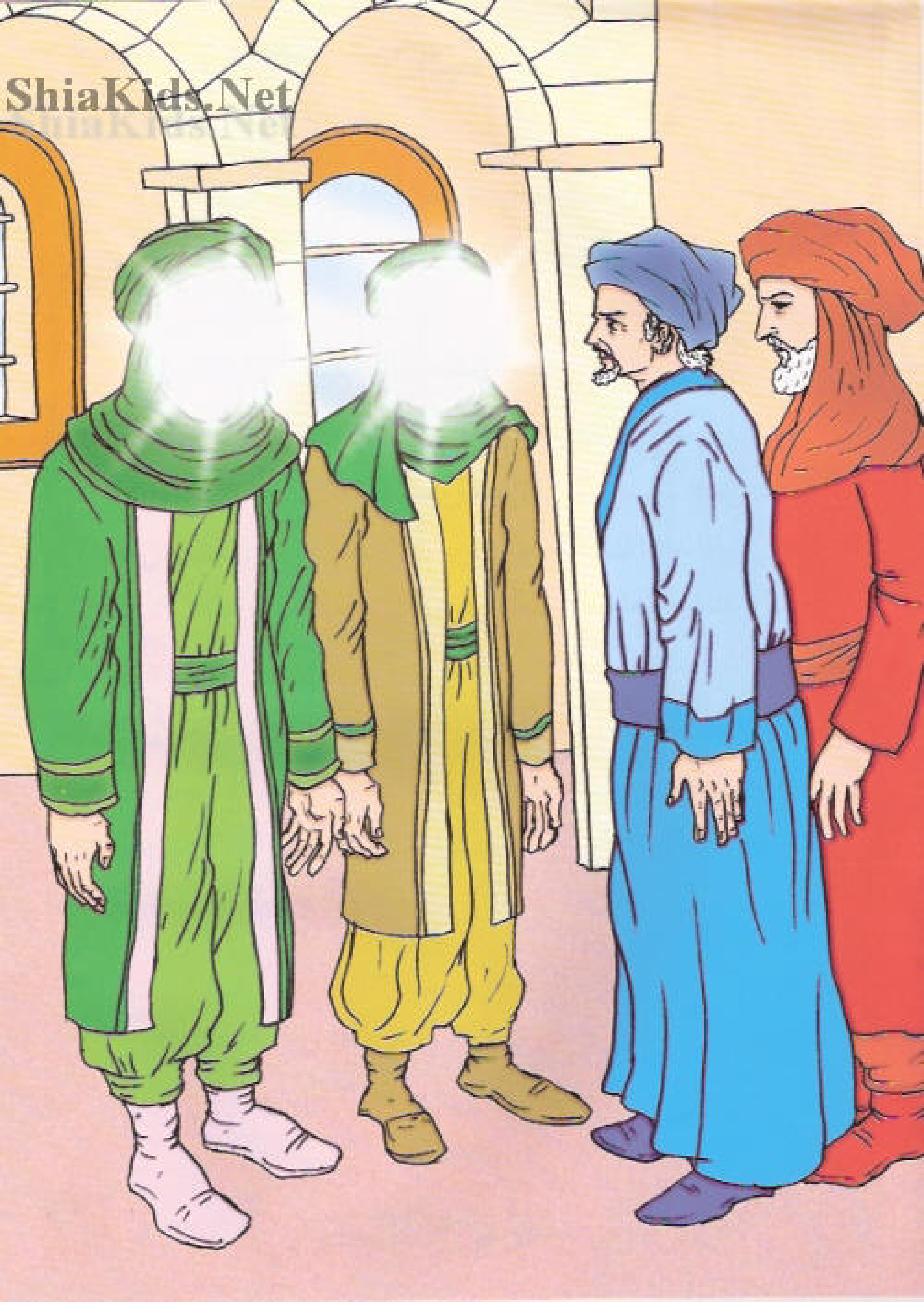
وَوَرِثَ عَنْهُ حُبَّ النّاسِ وطاعتِهِم. أقبلَ يغترفُ من علمِ جدِّهِ وأبيهِ غرفاً. ذلكَ العلمُ الذي أصبحَ منهجَ وسلاحَ آلِ البيتِ في محاربةِ الدجلِ والانحرافِ والاستبدادِ، فذاعَ صيتُهُ بينَ النّاسِ واشتهرَ ولم يزلْ صغيرَ السنِّ.



وبعدَ وفاةِ جدِّهِ زينِ العابدينَ (ع)، أصبحَ ساعدَ أبيه الأيمنَ مثلما كانَ أبيه لجدِّه. كانا يعملانِ، ويجاهدانِ بلا هوادةٍ صباحَ مساءَ، وليلَ نهارٍ من أجلِ الإبقاءِ على سلامةِ المجتمعِ الإسلاميِّ، وحمايتِه من السقوطِ في الرذيلةِ والانحرافِ. وقد أثمرتْ جهودُهُما تلكَ عن بناءِ جامعةٍ إسلاميةٍ عظيمةٍ، وعن انبثاقِ حركةٍ انطلقتْ منها فيما بعدُ العلومُ العقليةُ والدينيةُ والعلميةُ والتي وضعتْ الإسلامَ ولفترةٍ طويلةٍ في مقدمةِ الأممِ المتحضِّرةِ.

استمرّتْ إمامةُ أبيه عشرينَ سنةٍ حافلةٍ بالعطاءِ، حتّى ماتَ مسموماً شهيداً عام ١١٤هـ. فانتقلتِ الرئاسةُ والإمامةُ إليه. فواصلَ مسيرةَ أبيهِ وأجدادِهِ وسطَ العواصفِ والمخاطرِ بكلِّ اقتدارٍ، بما عُرِفَ عَنْهُ من عُلُوِّ الهمّةِ ـ والصبرِ والأناةِ ـ وأقبلَ النّاسَ على مدرسةِ آلِ البيتِ، بعد أنْ تأكّدَ لهم بأنّهُمْ وحدَهُم الدينُ الصحيحُ، ومَنْ يتّبعْ سبيلَهم لا يضلُّ أبداً.

كانَ عصرُ الإمامِ الصادقِ (ع) غيرُ مستقرٍ، وشديدُ الاضطرابِ، فقد توالى على كرسي الحكمِ الأمويِّ، خمسةُ حكامٍ، صرفُوا كُلَّ وقتِهم في الحفاظِ على ذلكَ الكرسيِّ المايلِ للسقوطِ، واستغلَّ الإمامُ (ع) انشغالَ الحُكّامِ عنه، بترسيخِ منهجِه، وإعدادِ وبناءِ عُصبةٍ خيّرةٍ من أتباعِه المخلصينَ، كانَ لهم أثراً كبيراً في نشرِ علومِ الدينِ، ومواجهةِ الانحرافاتِ والبدعِ الخطيرةِ التي راجتْ في ذلكَ العصرِ.



ShiaKids.Net

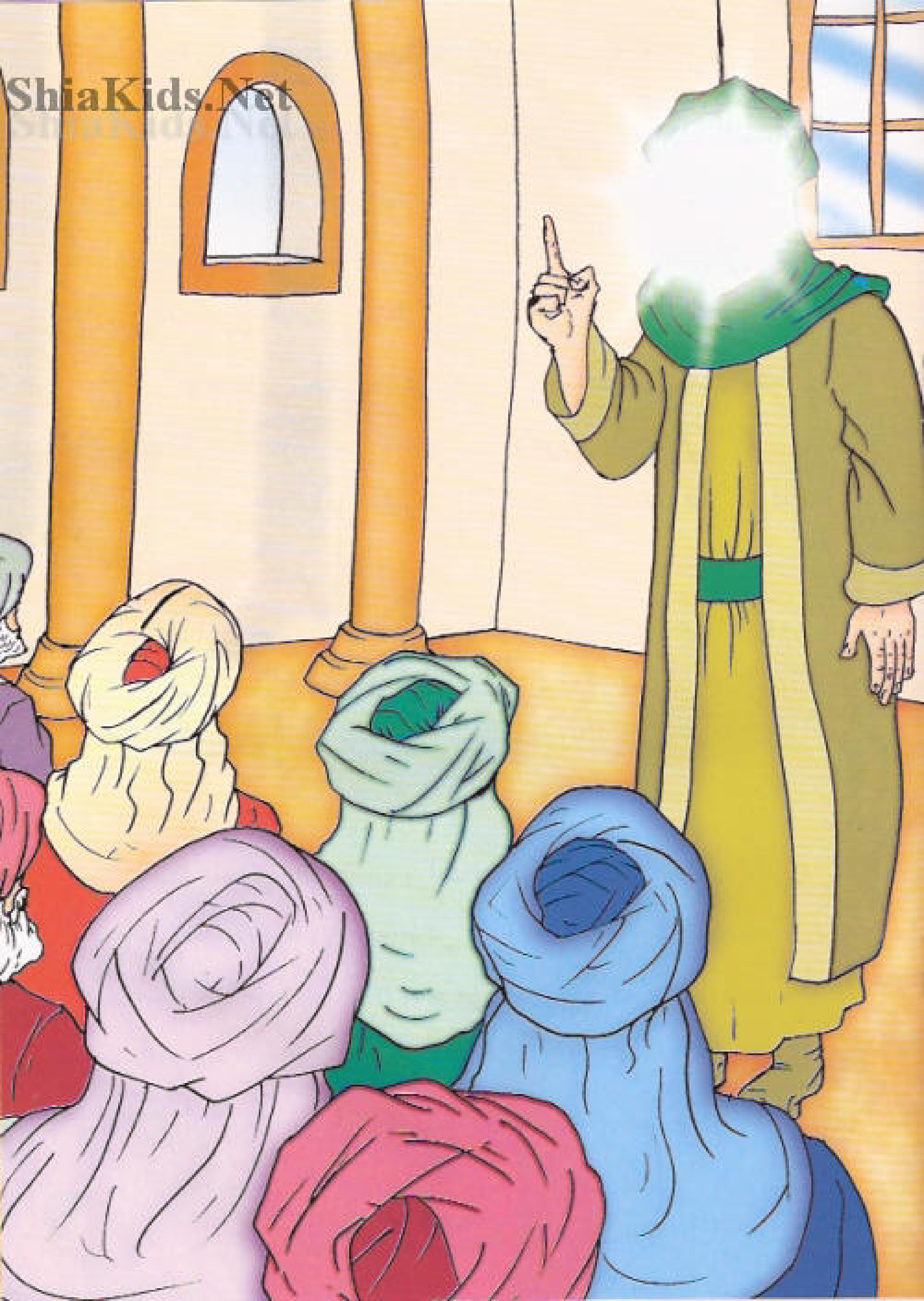
وفي النهايةِ وبعد أن طالَ ظُلمها وجورها آفاقَ الأرض جميعاً، وبعدَ أن أغرقتْ الأمةَ في الانحرافاتِ والدمِ. سقطتْ الدولةُ الأمويةُ على أيدي العباسيين عام ١٣٢هـ. وتربّعَ على كرسي الحكمِ ناسٌ لم يصدّقوا بأنّ الحكمَ قد صارَ إليهم.

كانَ العبّاسيون قد وصلوا إلى الحكمِ عبرَ تضليلِ النّاس، بالدعوةِ للقيامِ بالثورةِ تحت لافتةٍ أو شعارِ الدعوةِ إلى آلِ البيت. فأقبلَ النّاسُ على التمرُّدِ والثورةِ ضدَّ الأمويين. ولم تتكشّفْ الخديعة إلاّ بعد فواتِ الأوانِ. فالعباسيون هُمْ مَنْ أمسكَ زمامِ السلطةِ وليس العلويون.

لَمْ يكنْ الإمام(ع) بعيداً عمّا يجري. جاءَهُ بعضُ أتباعِه، ورغبوا بخروجِه والمطالبةِ بحقِّه الشرعيِّ بالخلافة. رفضَ الإمام(ع) دعوتَهم. فقد أدركَ بذكائِه الشديدِ بأنَّ الأمورَ لن تجري في صالحهم وردَّهُم قائلاً:

ـ «إنّ الزمانَ ليس بزمننا».

وفَضّلَ عوضاً عن ذلكَ، مواصلةَ خطِّهُ وعملَهُ الجهاديّ، الذي هو أشدُّ قوةً ونفوذاً، وأكثرُ بقاءً ودواماً من حكمٍ زائلٍ.



تولّى أبو العباس السفاح السلطة، وقضى فترة حكمه القصيرة، بمطاردة الأمويين، وتوطيد سلطته، وما لَبِثَ أن مات، فجاء من بعده المنصورُ فابتدأتْ مرحلةٌ جديدةٌ من المحن في حياة الإمام(ع) والعلويين جميعاً.

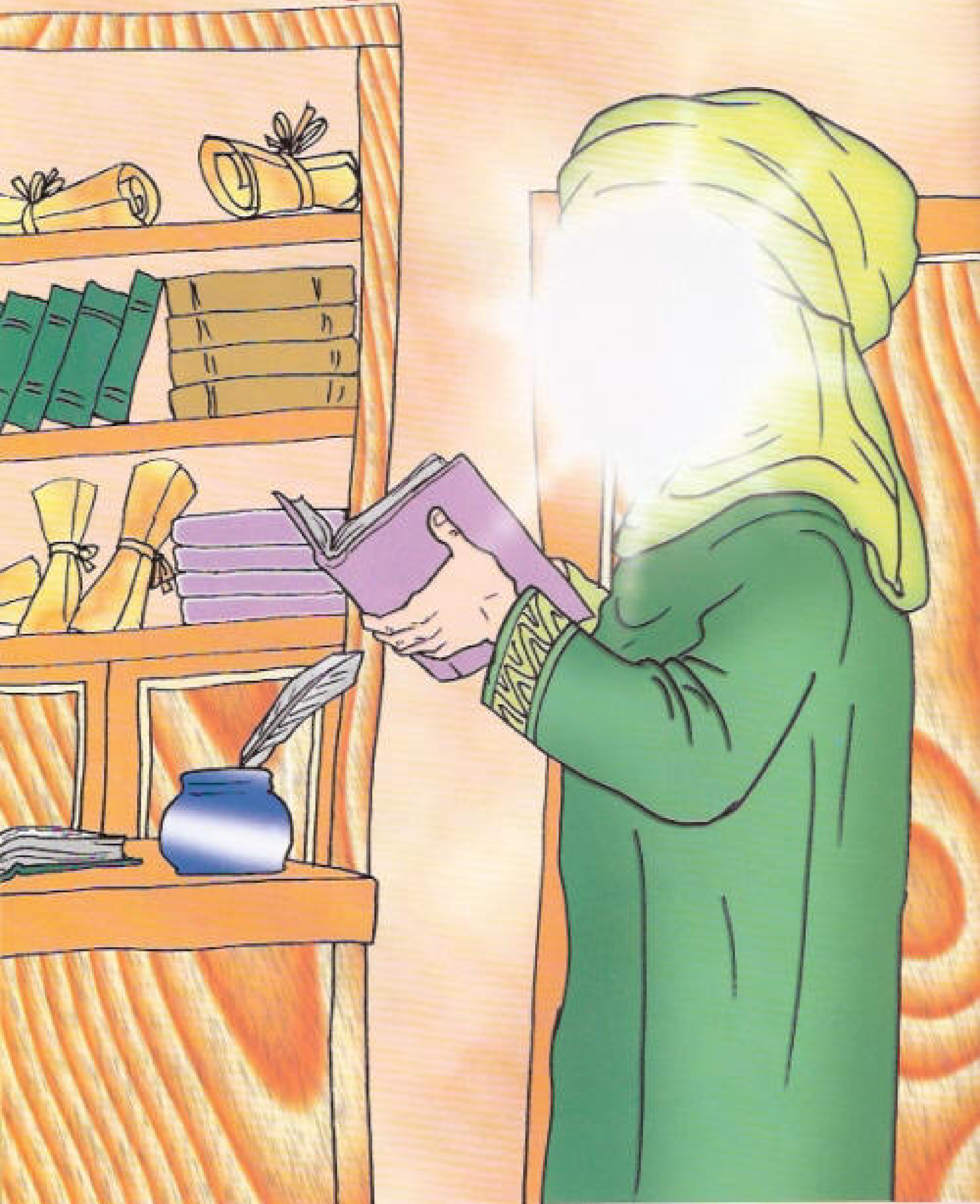
كانَ المنصورُ، جباراً، اشتهرَ بالغدرِ، وإقدامه على سفك الدماء، وبعد أنْ تمّ لهُ ولأخيه القضاءَ على الأمويين، اتّجهَ إلى العلويين، فابتدأ عهدٌ جديدٌ من الإرهاب والقتلِ والتشريدِ فاقَ ما فعلَهُ الأمويون.

كانَ قدْ أحسَّ بخطورة بقائه في الكوفة، لما عُرفَ عن أهلها من تشيعٍ، ففرَّ منها، وقامَ ببناءِ عاصمتهُ الجديدة بغداد، ومنها بدأ يخطّطُ للتخلّص من أشدِّ النّاس نفوذاً روحياً، وأقربهُم إلى قلوب وآمالِ المسلمين الإمام جعفر الصادق(ع).

استدعاهُ إلى بغداد عدّةَ مرات بنية قتله، لكنّ الإمام(ع) بذكائه وهدوئه المعهودين جابهَ طيشَ وإرهابَ المنصور، واستطاعَ أن يُصرفه عمّا عزمَ عليه، وأن يَنجُو من مكائد الطاغية، حاولَ المنصورُ ترغيبَ الإمام(ع) بالبقاء في بغداد، فرفضَ ذلك وفضّلَ العودة للمدينة.

كانَ المنصورُ يهدفُ من وراءِ ذلكَ إبقائهِ تحتَ مراقبتهِ المباشرةِ

وعندما فَشِلَ حاولَ بأسلوبٍ ملتوٍ استمالةَ الإمامِ (ع) فسألهُ ذاتَ مرّةٍ:



ـ لِمَ لا تخشانا كما يخشانا سائرُ النّاس يا أبا عبد الله؟

فأجابهُ الإمام (ع) بجرأةٍ وشجاعةٍ:

ـ «ما عندنا من الدُّنيا ما نخافكَ عليه. ولا عندكَ من الآخرةِ ما نرجوكَ له».

ذُهِلَ المنصورُ من تلك الجرأة فاستمرَّ بالمراوغةِ قائلاً:

ـ أنَّكَ تصحبنا فتنصحنا.

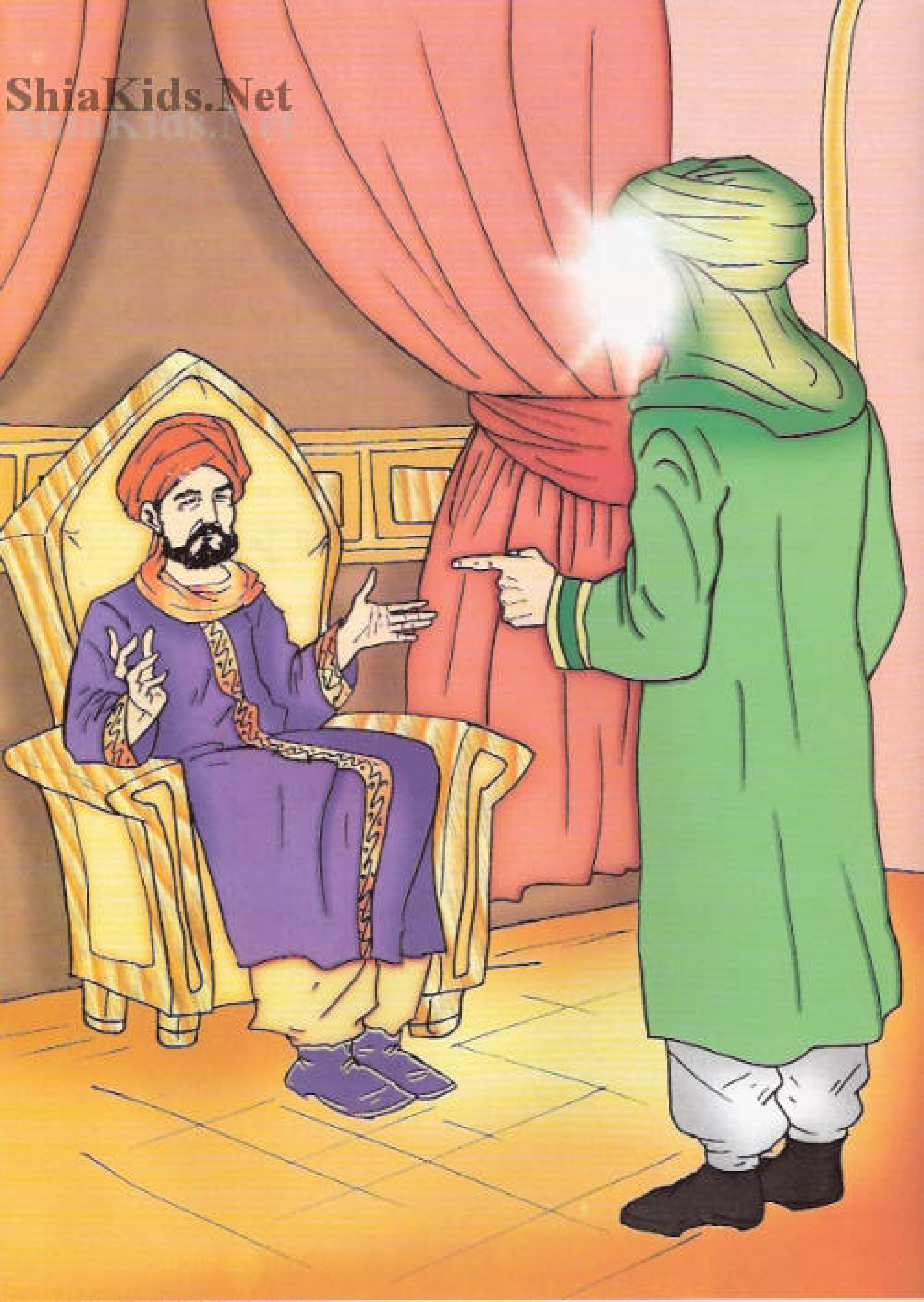
فيردُّ الإمام (ع):

ـ «مَنْ أرادَ الدُّنيا فلا ينصحكَ. ومَنْ أرادَ الآخرةَ فلا يصحبكَ».

سقطَ المنصورُ في حيرةٍ كبيرةٍ. فقد استنفذَ كُلَّ وسائلِ التهديدِ والترغيبِ لكنَّ الإمام (ع) لم يخضعْ. ولم يساومْ الطاغيةَ. حتى لو كان الثمنُ حياته.

وبعدَ أن ثارَ عليه محمدُ بنُ عبد الله بن الحسن. قمعَ المنصورُ ثورتَهُ بكلِّ قسوةٍ ووحشيةٍ. وسيّرَ العديدَ من رجالاتِ البيت العلويِّ من المدينةِ وألقى بهم في سجونِ بغداد. وقد لقي الكثيرُ منهم حتفهم فيها.

ضيّقَ المنصورُ الخناقَ على العلويين. بعد تلكَ الثورةِ على البيت العلويِّ.



ولم يهدأ ولم يغمضْ لهُ جفن. وهو يرى الإمام جعفر الصادق (ع) حياً يُصْبِحُ ويُمْسي على هذهِ الأرض. عرفَ إن الأمور لن تستقيمَ له. ولن يتاحَ له بسطَ نفوذهِ المطلق بوجودِ الإمام (ع)، وكان بداخله يَخشى من نفوذِ الإمام (ع) الدينيَّ في المدينةِ وسائرِ المدنِ الإسلاميةِ. وأخيراً. وبعدَ خمسِ محاولاتٍ فاشلةٍ لقتله قرَّرَ تصفيةَ الإمامِ. ولجأَ المنصورُ إلى الوسيلةِ المفضَّلةِ التي اتَّبعها الأمويون وهي السمَ. فقامَ بدسِّ السم إليه. وماتَ الإمامُ جعفرٌ الصادقُ على أثرها في ١٥ شوال عام ١٤٨ للهجرةِ.

ودُفِنَ إلى جوارِ آبائه في مقبرةِ البقيع.

خلَّفَ الإمامُ (ع) وراءهُ. أوّلَ جامعةٍ إسلاميةٍ كُبرى. كانَتْ حجرَ الأساسِ في نهضةِ الأمّةِ الدينيةِ والفكريةِ. جامعةٌ كان يُدرِّسُ فيها أكثرُ من ٤٠٠٠ طالب من أصحابِ الحديثِ. فضلاً عن دراسةِ العلومِ الجديدةِ من كيمياءٍ، وجغرافيةٍ وعلمِ فلكٍ وقد برَعَ فيها مجموعةٌ من العلماءِ. طبقَتْ شهرتهُم الآفاقَ في زمنهم وفي الأزمانِ التاليةِ.

فسلامٌ عليه يومَ وُلدَ ويوم استُشْهِدَ ويَومَ يُبعَثُ حياً.

